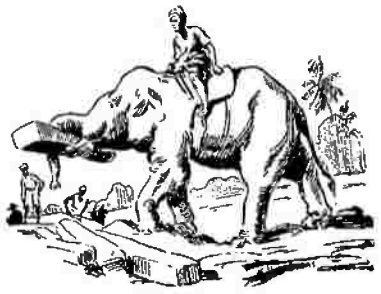

رحـــــــلات أنور

- ١٢ -

مع الفيل فى « سيام »

سَأَلَ أنورُ : « أَيْنَ نَحْنُ ؟ »

فَأَجَابَهُ الفيلُ : نحنُ فى سِيامَ ، ولـكِنْ لا يَعِيشُ فى هذا الجزء من البلادِ كثيرٌ من نَوْعِى . فمُعْظَمُنا يَعِيشُ فى الشَّمال ، حَيْث تُوجَـــدُ غابةٌ كَثِيفَةٌ تَجُولُ فيها الأفيالُ البَرِّيَّةُ حيثُ تَشاء ، وتَعْمَلُ ما تَحْلُو لها . وأمَّا الأليفةُ ، فتَشْتَغِلُ بِجَرِّ كُتَلِ الأخشابِ ورَفْعِها بعد قَطْعِ الأشجارِ . وأمَّا هُنا فى الجَنُوبِ ، حيثُ الأرضُ مُسَطَّحَةٌ ، وحَيْثُ يُزْرَعُ الأُرْزُ بكثرةٍ ، فلا يُوجَدُ إلاَّ القليلُ منَّا . »

وكانَ الفيلُ واقفاً عَلَى شاطِئِ نَهْرٍ واسِعٍ ، وأنورُ عَلَى ظَهْرِهِ . وكانَتْ تَبْدُو على جانِبَيِ النَّهْرِ بعضُ الأكواخِ المصنوعةِ من خشبِ « التاكِ » أو من القَصَبِ الهِنْدِىِّ . وسُقُوفُها من سَعَفِ النَّخِيلِ . كذلك كانَ فى النهرِ نَفْسِهِ كثيرٌ من المنازِلِ الطافِيَةِ محمولةً فَوْقَ حُزَمٍ من الأخشابِ . وهذه الحُزَمُ مشدودةٌ إلى أعمدةٍ خشبيَّةٍ عَلَى الشَّاطِئِ ، وكانَتْ تَعْلُو وتَهْبِطُ مع المَدِّ والجَزْرِ اللَّذَيْنِ يَصِلانِ من البَحْرِ . وكانَ أمامَ كُلِّ مَنْزِلٍ طَوّارٌ (رَصِيفٌ) صغيرٌ يَجْلِسُ عليهِ الناسُ ، يَطْبُخُونَ ، أو يَأْكُلُونَ ، أو يَتَحادَثُونَ . وعَلَى تِلْكَ (الأرْصِفَةِ) يَقْضِى أهلُ سِيامَ مُعْظَمَ يومِهِمْ . ويَعْرِضُ التُّجَّارُ منهم بَضائِعَهُمْ لِلْبَيْعِ .

والْتَفَتَ الفيلُ إلى أنورَ قائلاً : « سَوْفَ أَعُودُ الآنَ إلى الغابَةِ ! ! ولـكِنِّى أُرِيدُ أنْ استَحِمَّ قبلَ أنْ أَعُودَ . »

فَأَجَابَهُ أنورُ : « لا مانِعَ عندى من ذلك ، فَأَنَا أُحْسِنُ السِّباحَةَ . » ونَزَلَ الفيلُ فى النهرِ ، ومَّا أنْ تَوارَى ظَهْرُهُ تحتَ الماءِ ، حتى تَزَحْلَقَ أنورُ من فوقِهِ ، وأخَذَ يَلْعَبُ ويَقْفِزُ فى الماءِ . وكانَ الماءُ دَفِيئاً ، لِأَنَّ جَوَّ بلادِ سِيامَ حارٌّ ، والشَّمْسَ تَسْطَعُ فِيها كلَّ يَوْمٍ . ولَمَحَ أنورُ بعضَ الأولادِ يَلْعَبُونَ عَلَى مسافةٍ منه . وسَمِعَ أحَدَهُمْ يُنادِيه قائلاً : « ماذا تَعْمَلُ هنا ، أيُّها الفَتَى الغَرِيبُ ؟ تَعالَ لِتَلْعَبَ معنا . » وكانَ الأولادُ فى قارِبٍ صغيرٍ ، امْتَلأ بهم . فَأَمْسَكَ أنورُ بجانبِ القارِبِ ، وحاوَلَ الصعودَ اليه ، فانقَلَبَ القاربُ بِمَنْ فيه . وجَزِعَ أنورُ جَزَعاً شَدِيداً ، لِأَنَّهُ خَشِىَ أنْ يَفْرَقَ أحَدُ الأولادِ ، ولـكِنَّهُمْ كانُوا جميعاً مَهَرَةً فى السِّباحَةِ . وتَقَدَّمَ أحَدُ كِبارِهِمْ ، وأمْسَكَ بالقارِبِ ، وأعادَهُ كَما كانَ ، وسَبَحَ الآخَرُونَ نَحْوَهُ ،

وصَعِدُوا إليهِ ثانيةً. ولمَّا حاوَلَ آخِرُ وَلَدٍ منهم الصعودَ، انقلَبَ بهم مَرَّةً أُخرى. وقد كانَ ذلك مَبْعَثَ سُرُورٍ وتَسْلِيَةٍ لهم.

وقالَ أنورُ: «إنَّ كلاً منكم يُحْسِنُ السَّباحةَ، فما سِرُّ ذلك؟» فأجابَهُ الأولادُ: «إنَّ كثيرينَ مِنَّا يَعِيشُونَ بالقُرْبِ منَ النَّهْرِ أو عليه فى تلك المنازلِ الطافيةِ. وفى أيامِ طفولَتِنا تَضَعُ لنا أُمَّهاتُنا تَحْتَ أَذْرُعِنا عَوَّامَاتٍ مِن الصَّفيحِ ثُمَّ يَقْذِفْنَ بنا فى الماء، فَنَرْفِسُ بأَرْجُلِنا، وَنَعْلُو وَنَهْبِطُ، كأَنَّنا قِطَعٌ من (الفَلِّين). وبهذه الطريقةِ يَتَعَلَّمُ أَكْثَرُنا السباحةَ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ المَشْيَ» فقالَ أنورُ: «حَسَنٌ، والآنَ هَيَّا بنا نَلْعَبُ لُعْبَةً أُخْرَى!»

المنازل الطافية على النهر

فَشَدُّوا القاربَ إلى جانبِ النَّهْرِ، وقَفَزُوا إلى الشَّاطِئِ المَغْمُورِ بالطِّينِ. ثُمَّ أَخَذُوا يَجْعَلُونَ من الطينِ كُوَراً يَقْذِفُ بَعْضُهُمْ بها بعضاً، كما كانَ يَفْعَلُ أنورُ بالثَّلْجِ فى سِيبِيرْيا. فالطينُ يَقُومُ مقامَ الثَّلْجِ فى سِيامَ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فيها ثَلْجٌ مُطْلَقاً. وعند ما تُصْبِحُ أجسامُهُمْ مُغَطَّاةً بطَبَقَةٍ من الطينِ من قِمَمِ رُءُوسِهِمْ إلى أَخْمَصِ أقدامِهِمْ، يَنْزِلُونَ إلى النَّهْرِ، فَيَزُولُ عنهم الطينُ، وتَعُودُ أجسامُهُمْ كما كانَتْ قَبْلَ بَدْءِ اللَّعِبِ. وَلَحَظَ أنورُ أَنَّ مَلابِسَهُمْ لم تَكُنْ سِوَى قِطَعٍ من النَّسِيجِ الرقيقِ، يُلْقُونَها حَوْلَ أجسامِهِمْ عَلَى شَكْلٍ تَجْعَلُها تَبْدُو كأَنَّها لِباسٌ واسعٌ. وكانوا يَسْتَحِمُّونَ بها، فإذا خَرَجُوا من النَّهْرِ جَفَّتْ فى الشمسِ بِسُرْعَةٍ.

وَبَعْدَ أَنْ لَعِبَ أنورُ مع الأولادِ شَمَرَ بالجُوعِ، فَسَأَلَ أَحَدَهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُ شَيْئاً يأْكُلُهُ. فأجابَهُ الولدُ: «فَلْنَسْأَلْ أُمِّي، لِأَنَّ وَقْتَ الأكلِ لم يَحُنْ بعدُ. فنحنُ الآنَ فى مُنْتَصَفِ النَّهارِ». فقالَ أنورُ: «نحنُ نأْكُلُ فى هذا الميعادِ فى بلادِنا».

فأَجابَهُ الولدُ السِّيامِيُّ: «أَمَّا نحنُ فَلا نأْكُلُ إلاَّ مَرَّتَيْنِ فى اليومِ، مَرَّةً فى الصباحِ قَبْلَ أَنْ تَشْتَدَّ حَرارَةُ الشمسِ، والأُخْرَى عند المَساءِ، حينَ تَكُونُ الحرارةُ قد خَفَّتْ كثيراً. وقد نَشْرَبُ الشَّاهِيَ (الشاى) بينَ الأَكْلَتَيْنِ، أَوْ نَمُصُّ قصباً، أو نأْكُلُ قطعةً من الكعكِ. وَلٰكِنَّا لا نأْكُلُ أَكْلَةً كامِلَةً».

وكانا قد وصلا إلى منزل أحد هؤلاء الأولاد، وهو مقام على شاطىء النهر فوق قوائم من الخشب كيلا يغمره الماء إذا فاض النهر. ففي سيام ينعدم المطر مدة ستة أشهر، ثم تمطر السماء بعد ذلك كل يوم مدة ستة الأشهر الأخرى. ويرتفع منسوب الماء في النهر حتى يغمر الأراضي الواطئة على جانبيه. وكانت الدار تتكون من ثلاث غرف، كما هي الحال في كل بيوت أهل سيام. فكانت غرفة منها للنوم، حيث ينام الأهلون على حصر مفروشة على الأرض، وغرفة للجلوس، حيث يجلسون على الأرض أيضا، فليس لديهم موائد ولا كراسي، ثم المطبخ، حيث يطهى الطعام على موقد الفحم أو زيت البترول.

نادى الولد أمه قائلا: «هنا ولد غريب يريد شيئا يأكله.» وكانت الأم — ككل سيدات سيام — شفيقة طيبة جدا. فنهضت في الحال، وقدمت لأنور أرزا. والأرز غذاؤهم الرئيسي، يأكلونه كل يوم. وقدمت له غير الأرز سمكا وصفادع على أطباق صغيرة ثم موزا وجوز الهند، ثم سألته بلطف: «هل أنت مسرور؟» فأجابها أنور: «نعم، كل السرور.»

وجلس مع أفراد الأسرة على (الرصيف) يستريح. وكان في أثناء ذلك يشاهد القوارب من مختلف الأشكال والأحجام، تروح وتغدو على النهر. وبعض تلك القوارب صغير جدا، فلا يتسع الواحد منها إلا لطفل صغير يركب فيه، ويدفعه في الماء بمجداف صغير، والبعض الآخر أكبر من ذلك ويسير بمجاديف

أسرة سيامية تأكل أرزا على الرصيف

كبيرة. وكان بعضها محملا بالأرز أو بجوز الهند أو القصب، والبعض الآخر بالناس.

وسأل أنور: «ما سبب كثرة القوارب على هذا النهر؟» فأجابوه: «لأنه ليس عندنا إلا القليل من الطرق المعبدة على الأرض. وعندنا بدلا منها طرق مائية كثيرة. فإنك تجد الأنهار والقنوات في كل مكان. فلو لم تكن لنا قوارب، لكنا نضطر للسباحة معظم الوقت. وليس للكثير منا منازل على الأرض مطلقا. فهم يولدون في القوارب، ويتزوجون ويقضون حياتهم فيها إلا ساعات العمل. على أننا بدأنا في العهد الأخير ننشىء بعض الطرق الحديدية.»

وعند ذلك وجد أنور أن الوقت قد حان للعودة إلى السفينة. وعندما وصل إليها لم يجد باقيا على ظهرها من الحيوانات سوى اثنين: الشمبانزي والياك. وكان

الباكُ مُسْتَغْرِقاً فى النَّوْمِ . فالْتفتَ أنورُ إلى الشَّمْبانْزِى، قائلاً: « انْهَضْ ، يا رَجُلَ الغابَةِ ، الآنَ دَوْرُكَ ، وسَأَعُودُ بك إلى وَطَنِكَ ! » فَصَاحَ الشَّمْبانْزِى : « هذا بَدِيعٌ ! ولـكِنَّكَ لاَ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ ، فدَعْنِى أَقُودُ السفينَةَ بِنَفْسِى . اذْهَبْ إلى مَخْدَعِكَ، وَنَمْ ، وَلاَ تَشْغَلْنِى، حَتَّى أَصِلَ إلى بِلاَدِى . » فَحَيَّاهُ أنورُ ، وذَهَبَ إلى مَخْدَعِهِ ، ولَمْ يَسْتَيْقِظْ إلاَّ عَلَى صَوْتِ الشَّمْبانْزِى، يَقْرَعُ البابَ ، قائِلاً : « لقَدْ وَصَلْنَا ! »

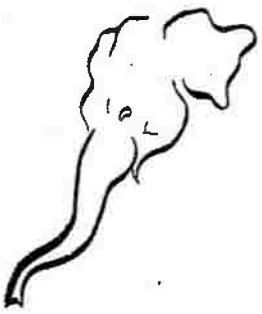

حـــــدائق بابـل المعلقـــــة

بَيْنَ دِجْلَةَ والفُرَاتِ قَامَتْ ، مُنْذُ آلافِ السِّنِينَ إمَارَةٌ عظيمةٌ عُرِفَتْ بِإمَارَةِ بَابِلَ . وكَانَتْ مدينَةُ بابِلَ العاصمةُ واقعةً عَلَى نَهْرِ الفُرَاتِ مُقَابِلَ مَوْقِعِ بَغْدَادَ الحَالِيِّ عَلَى نهرِ دِجْلَةَ .

وَأَتَى الصَّبَاحُ يوماً ، وإذَا بالأخبارِ تَتَوَاتَرُ من الخَاصَّةِ إلى العامَّةِ بِأَنَّ بُخْتَنَصَّرَ أميرَ بَابِلَ قد رَحَلَ فى سَفَرٍ طويلٍ إلى بِلاَدِ مِيدْيَا الجَبَلِيَّةِ المجاورَةِ لِبَابِلَ ، حَيْثُ اخْتَارَ أميرةً جميلةً فيها لِتَكُونَ زَوجَهُ وشَرِيكَةَ حَيَاتِهِ وإمَارَتِهِ .

وَلَقَدْ كَانَتِ الرِّحلةُ طويلةً شاقَّةً ، فَتَوَالَتِ الأيامُ ، وأهلُ بابِلَ يَنْتَظِرُونَ بِلَهَفٍ عَوْدَةَ أَمِيرِهِمْ وطَالَ الزَّمَنُ واشْتَدَّ شَوْقُ الشَّعْبِ إلى رُؤْيَةِ الأميرِ المحبوبِ وأميرتِهِ . وقَامَ الْجُنُودُ يَتَنَاوَبُونَ الاسْتِطْلاَعَ من أعْلَى قِمَمِ الأبْرَاجِ فَيَتَطَلَّعُونَ إلى الشَّمَالِ يوماً بعدَ يَوْمٍ ، لَعَلَّهُمْ يَلْمَحُونَ رَكْبَ الأميرِ قادماً ، لـكِنَّهُمْ كَانُوا فى المَسَاءِ يَعُودُونَ مُطْرِقِينَ ، فَيَرَاهُمُ الناسُ على هذهِ الحالِ ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الأميرَ لَمْ يَعُدْ بَعْدُ .

وأخيراً أَبْصَرَ الْحُرَّاسُ ، ذَاتَ يَوْمٍ ، رَجُلاً قادِماً من